حملة مراد الرابع واحتلال بغداد

تحرك السلطان على رأس قواته من اسكودار في شوال سنة ١٠٤٧ هـ / ١٦٣٨ م ، والتحقت بالجيش خلال التقدم قوات من عدد من مدن الاناضول اضافة الى عدد كبير من القبائل العربية بقيادة (امير الصحراء) ابن ابي ريشة ، وقام رجال هذه القبائل بدور مهم في تمهيد الطريق امام قوات السلطان وتزويدها بالمؤن ايام حصارها لبغداد . وفي منتصف تشرين الثاني ١٦٣٨ ، وصلت القوات العثمانية قرب بغداد وأقيم معسكر السلطان بالقرب من الاعظمية .

وكانت بغداد تقوم على الجانب الشرقي من دجلة ، ويحيط بالمدينة سور طوله ثلاثة اميال مبني بالآجر ويكتنفه خندق عرضه ستون ذراعاً يمده نهر دجلة بالمياه . وكان قسم من السور المحيط بالجهة الشرقية من المدينة دائريا تقريبا ويبلغ ارتفاعه ما بين ١٠ الى ١٥ ذراعا . وتنتصب في الزوايا الرئيسة من السور ابراج كبيرة اقيمت فيها المدافع ، في حين تقوم ابراج أصغر تقع على مسافات قصيرة فيما بينها يبلغ عددها مائة وثمانية عشر برجاً في جوانب السور المواجهة للبر وخمسة واربعين برجاً تشرف على النهر ، وكان بين كل برج وآخر خمسون فتحة لاطلاق نيران المدافع والبنادق ، وبين كل فتحة واخرى خطوة واحدة . وفي الزاوية الشمالية الغربية من السور تنتصب القلعة الداخلية التي يطوقها حائط مفرد يبدأ من باب المعظم الى دجله ، ترتفع عليه ابراج صغيرة نصبت فيها المدافع ، ويحدق بسورها خندق ضيق . وهذه القلعة تضم الثكنات ومخازن الذخيرة والمؤن بالاضافة الى الخزينة ، والى جوارها من جهة الجنوب يقوم السراي حيث مقر الوالي . وفي الاسوار ابواب اربعة ، ثلاثة منها من جهة البر وهي باب المعظم في الشمال ، والباب المظلم او باب كلواذى في

1. المماليك في بغداد:

- بدء ظهور طبقة المماليك:

قبل البحث في كيفية قيام المماليك بتأسيس حكمهم في العراق لابد من دراسة الظروف التي ادت إلى تفوقهم في المجتمع العراقي وهم غرباء عنه، لقد وجد الوالي حسن باشا (1704-1723) نفسه أمام مشاكل كثيرة، منها تفكك القوات الانكشارية، وتحللها من المسؤولية وتحولها إلى آلة فساد وفوضى حتى أن اكثرهم لم يعد يلتزم بالحضور في الثكنات إلاّ لاستلام المرتبات ثم اخذ الكثيرون منهم يشتغلون بمهن مختلفة، وصار عدد كبير منهم لا يجتمعون إلاّ لرفع صوت العصيان، بمطالبة زيادة الرواتب، أو بطلب عزل وزير، أو نصب وزير، يضاف إلى ذلك مشاكل المجتمع العراقي الذي تسوده العادات العشائرية وتتحكم فيه العصبية القبلية التي تحول دون احترام الحكومة واطاعة انظمتها، ونتيجة لذلك وجد حسن باشا نفسه امام طريقتين: أمّا أن يحكم كما حكم الولاة قبله ويترك الامور تجري في طريقها الاعتيادي، أو يستخدم قوة مرتزقة من غير العراقيين. وقد وجد حسن باشا الطريق الثاني هو الافضل لإقرار الامن والنظام، إذ كان من الصعب عليه أن يتخذ من العراقيين آنذاك قوة يستند عليها في تحقيق ما يريده لصعوبة انقيادهم بسبب تحكم العصبية القبلية فيهم، وكان حسن باشا قد الف استخدام الجراكسة الارقاء في السراي السلطاني، وشاهد جدارتهم وقابلياتهم العسكرية والادارية.

قام حسن باشا بشراء المماليك من أسواق تفليس الزاخرة بالرقيق الابيض وكان هؤلاء يجلبون اطفالا فيودعون في مدارس خاصة بهم ليتعلموا القراءة والكتابة والسباحة والفروسية وفنون القتال، وقد كانت هذه المدارس تضم أيضاً البعض من ابناء الاسر العراقية

والتركية إلاّ أن عدد هؤلاء كان قليلا بالنسبة لعدد المماليك وكثرتهم، وبعد أن يتخرج هؤلاء من المدارس يدخلون في سلك الجيش أو الوظيفة الحكومية. وقد تم تأسيس دائرة خاصة في بغداد تعرف بـ (ايج دائرة سي) أي الدائرة الداخلية مهمتها الاشراف على شراء المماليك وتدريبهم وقد تكاثروا بالتدريج وكانت اقلية صغيرة منهم من تولد بغداد. ولقد بذل هؤلاء المماليك منتهى جهدهم ليثبتوا وجودهم في المجتمع البغدادي وتفوقهم على غيرهم، واصبحوا بعد وفاة حسن باشا قوة لا يستهان بها، وازدادت هذه القوة تماسكا في عهد ولاية ابنه احمد باشا الذي سار على نهج ابيه في جلب المماليك والعناية بهم وبذلك تعاظم في حكمه المماليك الجراكسة[1] وثبتت اقدامهم في العراق.

ـ الحكم المملوكي في العراق:

ـ سليمان باشا (أبو ليلة) ـ1750 1762:

كان سليمان باشا (أبو ليلة) أول من تولى الحكم في العراق من المماليك، كما اشرنا اليه سابق، وقد كان من بين الكرج الذين اشتراهم حسن باشا وتعهدهم بالرعاية، وقد حصل هذا المملوك على حريته بخدماته لابن سيده، وبشجاعته التي أبداها في الدفاع عن بغداد عند حصارها من قبل نادر شاه عام 1732، ثم تزوج عادلة خانم (البنت الكبرى لأحمد باشا) في السنة نفسها. وقد شغل منصب كتخدا سنين عديدة وظل ينتقل من درجة إلى درجة اعلى واخيرا عهدت اليه ولاية البصرة عام 1736. وقد استمر سليمان على تقديم المزيد من الخدمات بأمانة واخلاص وكان يسارع في تنفيذ ما يؤمر به حتى اصبح الساعد الايمن للباشا كان يرسله من وقت لأخر لتأديب العشائر المتمردة وقد كان يعود منها في كل مرة منتصرا، حتى كوفئ على ذلك بحصوله على لقب باشا. ولما كان الاهالي يهمهم بالدرجة الأولى توفير الامن والاطمئنان فقد صاروا ينظرون إلى سليمان نظرة اجلال وتقدير، واصبح اسمه

1- الجراكسة نسبة عامة اطلقت على الشعوب التي استوطنت شمال القفقاس.

يتردد على السنتهم مقرونا بالهيبة وقوة الشكيمة، ولهذا فان توليه باشوية بغداد سنة 1750 لم يكن أمرا غريبا عليهم إذ خبروه مدة طويلة، ولقد واجه خلال سنين حكمه الأولى بعض حركات التمرد العشائرية إلاَّ انه استطاع بحملاته السريعة الحاسمة من القضاء عليها ونال بفضل انتصاراته تقدير البلاط السلطاني، وقد اهدى اليه السلطان في عام 1752 خلعة ووساما تقديرا لانتصاره في حملة سنجار، بالإضافة إلى الهدايا الأخرى التي ارسلت للأمراء الذين كانوا معه، وفي بداية عام 1753 صدر الفرمان السلطاني بجعله وزيرا دائما لكل من بغداد والبصرة، وصدر مثل هذا الفرمان أيضاً عندما توفي السلطان محمود خان عام 1754 وخلفه السلطان عثمان خان، وقد كان استلام الوالي لهذه الفرامين التي كان يحملها من الاستانة رئيس التشريفات يجرى بموجب مراسيم واحتفالات.

لقد اظهر سليمان باشا همة كبيرة في الإدارة والحكم، واضبح العدو المخيف للعشائر الثائرة لشدة بطشه واقدامه حتى انهم اطلقوا عليه اسم (أبو ليلة) لحملاته التي تغير عليهم دائما في الليل، وفي بغداد سمع الرحالة الدنماركي نيبور الناس يسمونه (سليمان الاسد)، وكانت تروى عن شجاعته وبسالته قصص كثيرة حتى قيل انهَ توجه إلى بلاد الشام وطارد بعض القبائل المتجولة التابعة لمنطقة دمشق بسبب تعرضهم لقافلة تجارية كانت قد خرجت من بغداد متوجهة إلى بلاد الشام، وفي عهده اصبح الطريق بين بغداد والبصرة سواء عن طريق الفرات أو دجلة أو البر امنا حتى للمسافرين دون حماية قبيلة من القبائل الامر الذي شجع الكثير من تجار ايران على اختيار طريق بغداد- البصرة على بلادهم التي كانت تسودها الفوضى والاضطراب. ومع كل هذه الشهرة الحسنة التي نالها فان السكان كانوا ينتقدونه بسبب خضوعه لزوجته عادلة خانم التي كانت امرأة قوية ذات نفوذ باعتبارها ابنة احمد باشا الذي كان زوجها أحد عبيده، وكانت تحاول أن تزج بنفسها في الامور السياسية والحياة العامة بتدخلها في كل شيء حتى انها خصصت اياما معينة لاستقبال المراجعين يلتمسونها في تحقيق وانجاز مطالبيهم، وكانوا يجلسون في غرفة خاصة منعزلة عن حريم البلاط ويتولى الحرم أغا سي مهمة استلام العرائض منهم وارجاع جواب سيدته اليهم، وكثيرا ما

كانت تلغي الاوامر التي سبق أن اصدرها زوجها أو كتخداه، بل وجعلت لنفسها وساما خاصا لها يتكون من شريط حريري يلف حول الرأس، وقد اهدته في البداية إلى الاغوات البارزين الذين كانوا قد خدموا جدها واباها كعلامة شرف. وقد اصبحت عادلة خانم بسبب اعمالها هذه حديث الخاص والعام وصارت تتهم بانها السبب في وقوع الكثير من الحوادث فقد ذكر أن سليمان باشا قام بتحريض منها بحملة على الزعيم الكردي سليم باشا بابان الذي مات والدها احمد في حملة ضده من قبل، واستدرجه إلى بغداد حيث امر بإعدامه شنقا في عام 1758، كما قيل أن قتل زوج اختها عائشة بريثا كان بتحريض منها.

بلغ نفوذ المماليك القمة في عهده حين اكثر من استخدام المماليك في الوظائف المهمة، وبدأ سيل السماليك يتدفق بزيادة من اسواق تفليس إلى بغداد فأسست لهم مدرسة تتسع لمائتين منهم. وصار أبو ليلة يكثر من استخدامهم في وظائفه الحكومية، فكان منهم الكتبة والجباة وقادة الحاميات كما كانوا من كبار حاشيته أيضاً، فادى ذلك إلى حرمان الاسر التركية والبغدادية المعروفة من نصيبها الذي اعتادت عليه في جهاز الحكومة سابقا. وفي 14 ايار عام 1762 توفي سليمان باشا عن عمر ناهز السادسة والستين عاما وذلك على اثر مرض الم به مدة ستة اشهر، وقد ظلت بغداد تردد ذكراه حتى استمع إليها نيبور في عام 1766، وقد كان موت سليمان بداية فترة طويلة من الفوضى.

كانت وفاة آبي ليلة الذي لم يعقب احدا على الحكم ايذانا بنشوب نزاع عنيف بين المتحفزين للحصول على منصب الباشوية، فقد كان هناك سبعة مماليك مرشحين للحكم تولى كل منهم في وقت ما منصب الكتخدا، وكان احد هؤلاء عمر اغا الزوج الثاني لعائشة خانم البنت الثانية لأحمد باشا، وكان الاخر علي اغا متسلم البصرة الذي كان من قبل حاكم الديوانية، وهو الذي ساعد ابا ليلة عند زحفه على بغداد عام 1749. في وقت اراد الباب العالي اسناد ولاية بغداد إلى والي الرقة سعد الدين باشا كمحاولة للحيلولة دون حصر السلطة بأيدي المماليك، غير أن اضطراب الاوضاع في بغداد بسبب تنافس المماليك السبعة جعل الباب العالي يتريث في اصدار الامر، ثم وردت عريضة من بغداد تتضمن اسماء

المرشحين السبعة لكي يختار السلطان منهم واحدا، فصدر الفرمان بتعيين علي اغا للمنصب الشاغر، وقد قيل أن تعيينه كان بتأثير الصدر الاسبق محمد راغب باشا وتوصيات الكثير من ذوي النفوذ في بغداد وما قدمه من هدايا وأموال إلى المسؤولين في الباب العالي. ولم يكد علي اغا يصل بغداد ويتسلم زمام الحكم حتى بدأت المؤامرات تحاك ضده من اجل قتله والتخلص منه. وقد بلغت هذه المؤامرات أوجها عندما تعرض لمحاولة اغتيال اثناء عودته من محاربة عشيرة كعب عام 1763، وبعد فشل هذه المؤامرة راحت القوى المضادة تنشر بين الناس مختلف الاشاعات لإثارتهم ضده، الى حد سرت شائعة تقول انه من فرقة القزلباش وينوي تسليم بغداد لشاه ايران، ومما كان يعطي لهذه الادعاءات مفعولها بين الناس كون علي باشا من اصل ايراني.

لقد كان أهم مروجي هذه الاشاعات اثنان هما: عادلة خاتون إذ فقدت نفوذها في عهده بعدما كانت بمثابة الحاكم الثاني على البلاد في عهد زوجها، والثاني زوج اختها عمر اغا الذي هو من المرشحين السبعة. كان لهذه الاقوال مفعولها بين الاهالي فقد احدثت استياء ضد علي باشا. ثم اندلعت ثورة محلية كان المحرك لها عمر اغا، وكان الانكشارية مادتها، وقد احتل الثوار القلعة، ووجهوا نيران مدافعهم نحو السراي، غير أن علي باشا تمكن من تهدئة الحالة. ثم قام بإعدام الكثير من رؤساء الانكشارية، فساد هدوء مشوب بالتوتر، ثم اعقبته عاصفة هوجاء اعادت الثورة إلى اشد ما كانت عليه بحيث اضطر الوالي في النهاية إلى الهروب من السراي متنكرا بزي امرأة ولجا إلى احدى الدور القريبة منه، ولكن الثوار علموا بمقره فهجموا عليه وأخرجوه وأتوا به إلى القلعة، وهناك قتلوه عام 1764.

- عمر باشا (1764 - 1775):

لقد كان من الطبيعي أن يخلف علي باشا في الباشوية المملوك الغالب وهو عمر اغا قائد الثورة الناجحة وقد اجتمع علماء بغداد واعيانها وكتبوا عريضة إلى السلطان متهمين الوالي القتيل بشتى التهم، ومرشحين عمر لولاية بغداد، فجاءت موافقة السلطان على اسناد